

دولة العدالة والسلام عند ليفيناس

تأليف مقال ابنصور*

ترجمة الدكتور مالفى عبد القادر

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس ، مستغانم

تتأسس الدولة بالنسبة للفيناس، الذي يعارض فيه هوبز، ليس بجيلادها الحاصر للعنف بل بحصرها للا نهائي المرتبط بالاخلاق

فرضية، إن هذه الدولة تعد موقعا لحركة تحمله إلى الذهاب إلى ما وراء الدولة.

يأخذ "الضد-هوبز" ميلادا ضمن التناوبية التالية: هل بإمكان الدولة أن تحدد نطاق العنف أو أن تحدد غرابة الكرم الموجه للآخر؟ هكذا طرحت في "السلام والحوارية": إنه من غير الضروري معرفة إذا كانت دولة المساواة عادلة، أين يمكن للأوروبي أن يتجسد... ويباشر حربا من الكل ضد الكل - من وراء المسؤولية غير القابلة للهدم من قبل الواحد للآخر...⁽²⁾. بذلك تفتتح التناوبية ما بين دولة تنحدر من مبدأ حيواني، المتمثلة في دولة "هوبز" أين يكون فيها الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان، دولة تكون ناتجة عن مبدأ إنساني يثير الفضول استثنائيا، يتمظهر فيها اللقاء والمكان والظروف الأصلية للحادثة الأخلاقية، ليتم فيها تأسيس دولة. فماهو الحدث الفعلي الذي يحدد ذلك إذن؟ هل الحرب أم اللاتناهي للعلاقة الأخلاقية؟ عن هذا السؤال يجيب "ليفيناس" وبدون مراوغة في الكلام ليصف قواعد الدولة والسلام يختار الفرضية الثانية، تلك المرتبطة بمسؤولية الوجود لغيره، حتى لا نشكك و يتم رفض فرضية "هوبز". "إنه من غير المؤكد -يكتب "ليفيناس" - أن الحرب كانت البداية وقبلها كانت الحياة القدسية"⁽³⁾. فهل يجب أيضا المحافظة على تعريف "ليفيناس" للدين بالذاكرة: إنه الصلة مع الآخر الذي هو بعيد عن تقليصه إلى تمثله الذي يتطلب تكونا في التضرع دون أن يسبقه فهم.

معرفة العالم الذي يغذي شبه البديهية المعبرة لأفكار "هوبز" قد تم وضعها على جنب. لأن اللقاء مع الوجه الآخر يعد إحياء بعلاقة إنسانية تنفلت في نسيجها حتى مع مواجهة القوى، فتعارض الوجه ليس تعارضا مع القوى. قياسا على أن الوجه ليس العالم بل ينفلت من القوى التي تميز العالم. إننا بالطبع بعيدين عن السلم الديني (L'irénisme)، فإذا كان الوجه يتحدى قدرتي على الاستطاعة فغيرته (Altérité) تعرضه إلى العدم التام أو إلى القتل. "فالآخر هو الوجود الوحيد الذي أستطيع بإرادتي قتله" يصرح "ليفيناس" في "الكلّي والنهائي" (Totalité et infini)، هنا تفتتح عقدة عجيبة في الإنسانية بممر، الذي لا يوجد به ممر. ضمن غيرية الوجه يوحي بتعالى الآخ، ذلك النفي الرائع الذي أتى به "ليفيناس" ضد "هوبز".

لم يتوقف أبدا "ليفيناس" عن التردد على الساحة العمومية ليكون المفكر بلا منازع حول الكل الأخلاقي (Le tout éthique)، ألم يعترف له بأنه المخترع لفكر أصيل للدولة (دولة العدالة)؟ أو بتعبير آخر دولة ذات محتوى يكون أساسه موجه نحو العدالة؟ إنه من الضروري أن لا نبذل هذا الفكر، لأن ابتذال الفلسفة يتطلب تصغيرها إلى موضوع (Thématique) بالمصادفة مع الأسبقية للأخلاق دون التساؤل عن التغير الذي أحدثه ليفيناس حول فكرة الأخلاق، فمن هنا ينتج تبسيط مبالغ فيه الذي استهل باحتقار السياسة وربطها بوضعية تكون فيها تحت السيطرة، ليلقيها بجهة ما لتخضع إلى النقد، والأنطولوجيا مع المحافظة على الوجود. بهذا الاتجاه نصل وبدون معاناة لإطلاقية الأخلاق إلى الحد أن أنقد قيمة السياسة وتحديد هويتها بمواصلة الحرب باستخدام وسائل أخرى. على حسب "جيل دلوز"، موضوع الفلسفة صناعة المفاهيم وليس المخاطبة بالمواضيع، في هذه الحالة لا يعتبر "ليفيناس" مفكر المواهب الذاتية، بل الفيلسوف الذي أبدع مفاهيم لم يصرح بها مثل الجوارية، اللا خضوع، الاستعاضة ودولة العدالة، مع القدرة على قذف نور جديد على مجال يعد آخر اكتشاف قائم على العلاقات بين الناس.

حتى وإن لم يكن "ليفيناس" فيلسوفا سياسيا، فهو لم يتوقف أساسا على إعادة التذكير بالأهمية القصوى للمضاعفة الإنسانية للبنية السياسية للمجتمع الخاضع للقوانين⁽¹⁾، هذا ما وضعه في نصه "السلم والحوارية" (Paix et proximité) هكذا كان الذي يقدم "تيمة" (Thème) أسبقية الأخلاق، التي ستصبح من جديد مشكلا يتطلب التفكير فيه تحت دلالة التساؤل والنقد. حتى يأخذ قياسا حديثا لإبداع مفهوم جديد للدولة. يجب أيضا ملاحظة أن "ليفيناس" وبالموازنة مع "كانط" ألف نصا عنوانه بـ (ضد-هوبز) (Contre-Hobbes) على إثر خصوبة النتائج المترتبة عن الانتقادات الموجهة ضد مؤلف التنين (Léviathan)، ما سمح "ليفيناس" أن يميز ما بين عدة أشكال للدولة، منها إنجاز جهاز متميز تمثل في دولة العدالة، الذي يعد أكثر لغزا من عودته لأصله الغريب على أنه

بالنسبة لمؤلف "التنين" لدينا شيئا مشتركا هو أن نكون قتلة بالقوة، بعبارة أصح هذه الدراما ليست آتية من حساب القوى بمقاومة الآخر التي هي ملك لنظام مغاير. بذات السياق لمضمون العالم نجد أن هوبز لديه الحق في القول أن جسم الإنسان قابل للإجراح، يمكن لأي شيء أن يجرحه، إلا أن الآخر لا يعارض قوة بقوة بل رد فعله غير المتوقع، زيادة على ذلك تعالي وجوده بالمقاربة مع الكلية المتصلة بنسق قوي. إن تعطل الكليانية ينفذ من قبل مقاومة غير مصرح بها وهي على الإطلاق شيء غير المقاومة الأخلاقية. إنه ضمن الزيادة في عظمة الوجه على التهديد والتحدى إلى غاية الموت. إنه ضمن اللإمكانية القتل الذي ينحدر و يشتد بفتح بعدا آخر الذي يضاعف الواقع ويخترقه و يعيد السلم للحدث الأول، و نكون بذلك قد تحررنا من بديهيات "هوبز" المزعومة.

ما يستنتج "ليفيناس" في كتابه "الكلي والنهائي" أن الحرب لا تمثل الحدث الأول عند اللقاء، ما يبينه "ليفيناس" من وراء الرفض، هو الرفض الحقيقي ضمن "ضد هوبز". لنأخذ النقاط القوية:

- بحرب الكل ضد الكل، يستبدل "ليفيناس" فرضيته الجوارية وأسبقيتها ليصبح سؤاله: ماذا يعني اقتصاد الوجود والميدان القليل الإستغلال في العلاقات البينية-إنسانية (Inter-humaines)؟ ألا يعني التعرض للآخر والجوارية انقطاعا للعب الوجود والمواضبة فيه ككناتوس (Canatus) الوجود؟ باسم الجوارية يفتح أقدم بوابة لمغامرة الأنانية في ارتباطها بكناتوس (Canatus) الوجود⁽⁴⁾. فبدل من العماء (Chaos) الأصيل "لهوبز" الذي ينادي وبدون خطأ بدولة العنف. ليمظهر بنسج غير معروف لعلاقات خاصة بالإنسانية الطوباوية، كأن نظر الفيلسوف أيقظ رموزا نائمة. الجوارية ليست لا حالة ولا استراحة بل ما لا يسكن القلق. فلا -اختلاف أو الأخوة والجوارية ليست إلا علاقات بعيدة على أن تكون توعية، بل هي في الأصل توعية ضمن الأخوة وإنكار الذات وتأسيس الواحد من أجل الآخر. فعاطفة القريب والجوارية هي استحواذ (Obsession) أو بتعبير آخر اللاتبادل بعينه. بواسطتها تنفتح مغامرة معقدة التي يمكن لها أن توصلنا إلى دولة العدالة.

- تغيّر الجو على الأقل جذريا، هذا لكون "ليفيناس" يقابل خوفي من موت العنيف تحت تأثير المحافظة على الذات بالخوف من موت الآخر. ضمن اللقاء وضع تحت امتحان الوجه (Visage) تنشأ حساسية نحو موت الآخر "كأن هذا الموت قضيتي". أسبقية موت الآخر تخدم كليا فكر "هوبز" وتعييناته لإعادة الاعتبار للمجتمع الإنساني، بالاستناد على مبدأ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان (Homo homini lupus). فبدل أن أتعامل مع الآخر على أنه

معتدي أو ضحيتي المحتملة، أتعامل معه على أن الموت ستأخذه داخل نظام القلق ويكون أسبق مني في ذلك.

- تتعارض غرابة فرضية "ليفيناس" مع تلك التي طرحها "هوبز"، فالدولة بعيدة عن إصدار حدود موجهة للدفاع الحيواني نحو الكل ضد الكل، على العكس تنحدر من الجوارية المغامرة الإنسانية و غرابة الكرم من أجل الآخر. فالدولة تتأسس وتأتي لتحديد اللانهائي الذي يعين العلاقات الأخلاقية. حتى نعيد استخدام ذات ألفاظ "ليفيناس"، فمن الأهم أن نعرف ماهي الفرضية الصحيحة. ينتج عن ذلك مؤشر يمكننا من التمييز ما بين عدة أشكال من الدولة. فكل فرضية تتلاءم مع شكل خاص للدولة: بحد الحرب نحصل على دولة العنف، بحد الجوارية تتكون دولة العدل. يتبع في ذلك ليفيناس التساؤل التالي: هل الدولة بهذا المعطى تنحدر من المسؤولية نحو الآخر ومن حدودها التي تتلاءم مع نموذج "ضد - هوبز"؟ أو تشكل الدولة كثمرة تحددت بالعنف الذي يتلاءم مع نموذج "هوبز"؟ إننا نجد بطيات كتاب "ليفيناس" وبالتحديد هذا التناوب تحت شكل التعارض ما بين دولة "سيزار" ودولة "داود" (1971). نستنتج انه من جهة دولة "سيزار" - روما- تشكلت على نموذج "هوبز"، كأنها مدينة عرفت السلام لكن تحت دلالة "الضد"، إنه "حق الناس ضد أمثالهم"، هذا يعني سلام الامبراطوريات التي خرجت من الحرب "والتي تقوم على الحرب"⁽⁵⁾، من جهة أخرى دولة داود -بيت لحم- آتية من الأخوة الأولى التي لا تقبل الاختزال ومن المحتمل أن تنشئ سلاما جواريا تحت رمزية من أجل الآخر. حتى إذا كانت إسرائيل لا تجهل العنف عبر التاريخ، بالنسبة لها ليس هذا هو العنف الممارس من قبل الدولة، بالرغم من بداهة المعنى المشترك، غير أن السابقة الحسنة هي الحادثة الأخلاقية للقاء.

أربع خصائص تميز دولة العدالة:

1- هذا الشكل من الدولة يتضمن في ذاته إمكانية فتح نقد في النطاق الذي توجد به و باستمرار جواريه أصيلة تتحول من ذاتها إلى حكم ابتدائي. بدولة العدالة يمكن أن نتمرد ضد المؤسسات باسم الذي مكنهم من النشوء، ذلك هو المكان الجوهرى للشرعية. في هذه البداهة التي تجعلها لا يتمشى مع الدولة التي تكونت على حسب نموذج "هوبز". هذه الدولة ذات تركيب أحادي البعد، نجدها غارقة بالكامل في العنف، الذي نشأت داخلها حتى تضع لها حدا. الدولة لا تعرف أي إظهار لظاهرة العنف، وحتى السلام الذي تؤسسه يقع على اعنف احتمال، مثل هذا العالم يعاني من مقر نقدي ينطلق من حكم ممارسة العنف.

2-تاريخ آخر يعرف النور للثالث (Tiers) إنه بالطبع ليس التنين الذي يتدخل كرجل "الثالث" ما بين الرجال التي تتقاتل كالذئاب، بل "الثالث" الذي يفتح إمكانية العدل. هنا تبدأ عقدة مركبة التي تأخذ مكانة مبهمة للـ"الثالث" الذي يمكن أن يكون هو القريب أو هو أحد آخر غيره، مهما يكون "الثالث" (الذي دوما هنا) يأتي ليعيق مسؤولية اللاحائي اتجاه الرجل الآخر، فهو يدخل ضمن مغالاة "الجنون الأخلاقي"، فالقياس والمقارنة ما بين ماهو فريد وبذات القوة يحدد المسؤولية التي تعرف بالعدالة. إذا كان دخول "الثالث" ينشئ دولة العدالة على أنه المحدد للجوارية هذا لا يعني أبدا تأسيسا سديدا ما بين نظام العدالة ونظام المسؤولية.

3- لا تتوقف اللامبالاة البدئية عن ملازمة دولة العدالة. يتبع في ذلك أن لدولة خاصية مميزة بأن تكون موضوعا داخل فضاء أين يوجد نوع ما بين مغامرة رائعة تباشر بها وبين نهاية تتابعها، التي لا يمكن أن تكون غير العدالة. لهذا السبب تصبح دولة العدالة على الدوام موضوع تساؤل مزدوج: من جهة هل شكل المشاركة الإنسانية التي تؤسسها هي داخل تواصل لمغامرة أصيلة؟ من جهة الأخرى، هل هذا الشكل الطبيعي بإمكانه أن يمنح الدولة النهاية التي تنشطها، المعرفة و العدالة؟

هل يتوجه أيضا هذا التصور نحو دولة لامركزية ؟ أين تخضع لخصمات حركة نافذة في النطاق الذي تكون فيه فعالية متوفرة بشكل آخر، لتأتي وتضع نفسها فوق تلك المؤسسة التي تنحو فقط لتنتج ذاتها ككلياتية؟ إنها دولة مقسمة لامركزية، وأكثر من ذلك محركة بالتبادل الدائم للعدالة والمسؤولية و بعدوة الواحدة للأخرى. يبرز إذن "الثالث" تأثيراته التي لا تغلق إلى حد ما الطريق أمام الجوارية، التي أتت بالقياس إلى الآخر الذي يعني سقوط في المستوى أو إبطال هيمنة نظام معقول، لأنه إذا كانت العلاقة مع الآخر قد أثبتت "الثالث" في السابق وفي العلاقة نفسها ، نجدها تستمر معه العلاقة الأخلاقية. من هنا كان إصرار "ليفيناس" على الطبيعة المتعددة للعدالة كخادمة وملائكية.

4-إن جهاز "ليفيناس" لدولة العدالة يحتوي من ناحية ما يبعث نحو ما بعد ذلك، بحيث تبدوا أنها تمشي في حركة ضمن الدولة إلى ما وراء الدولة، لحسن الحظ يوجد تلاعب في عدم التفكير في الدولة بشكل آخر- دولة العدالة مكان دولة الحق-، لكن ما لا يمكن أن نتصوره هو وجود شيء آخر غير الدولة. فصدق فرضية "ليفيناس" عن الدولة هي باستمرار في دلالة مضاعفة (Sursignification). لا تتوقف الدولة داخل حقيقتها عن القيام بإشارة اتجاه ماهو من وراء ذاتها، إنه الاعتراف بأن فرضيته تفصح لنا ماهو ضمني في الدولة

وبهذا المضمون يعرف كيف يجعلنا نرى "تجاوز القصد في القصد ذاته"، الدول كبيرة و بزيادة أكبر، أو هي فائض يتجاوزها أفق غير معروف الذي يعود إلى التحليلات الفينومولوجية، التي تقوم بإبرازها وإخراجها في مشهد. على حسب هذه الدلالة المضاعفة التي تستقر في الدولة يوجد فيها ماهو أكبر منها فهي مهيأة لأن تتجاوز ذاتها، وأن تفتح الطريق لهذه الناحية أو بتعبير آخر إلى هذا الفائض الذي يعبر بها ويحملها لتمتد إلى ما وراء ذاتها.

يعد "ليفيناس" مفكرا في تغيير الصور (Déformalisation)، بهذا يستدعي إلى إبعاد التعريف الشكلي للشورة أو قلب نظام معطى ليستبدل تعريف بمحتواه: تحدث الثورة عندما يحرق الإنسان و يخلع من الخصمات الاقتصادية. هذا ينطبق كذلك على الدولة، فدولة العدالة كونها محددة لللاحائي و مسؤوليتها للآخر، تتساوي في ذلك مع دولة القانون التي تغير من صورتها التي لديها ميل إلى منع تجاوز الشكل، الذي يقبل استقبال المحتويات الأكثر تعددا، وفي الوقت ذاته تفتح فرقا ما بين هاذين النموذجين من الدولة: بما أن دولة القانون تأتي من ليبرالية الملكية ومن ليبرالية السياسة، دولة العدالة تمر بـ"أثينا" أو "بيت لحم" لتعقد صلة لا تزول مع فكرة الخير.

الهوامش:

- * Miguel Abensour, l'État de la justice , Magazine littéraire, n 419, Avril 2003
- 1-In Lévinas, Cahiers de la nuit surveillée, 1984, p 345.
- 2-Op. Cit. P 346.
- 3-Langage et proximité, En découvrant l'existence avec Huserl et Heidegger, Vrin, 1967, p 234.
- 4-Autrement qu'être, p 177.
- 5-Totalité et Infini, p X

